محاضرة 03 :

النقد الانطباعي مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه

تمهيد:

إذا كانت العقلانية تقدّس العقل وتجعله أساس الوجود على لسان المقولة الشائعة " أنا أفكر إذا أنا موجود" فإن شعار الانطباعية " أنا أحسّ إذا أنا موجود ".

والانطباعية مدرسة أدبية فنية ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا. تؤمن بأنّ الانطباع والإحساس هو أساس الإبداع الأدبي والفني عموما. وبأن كل معرفة لم يسبقها إحساس بها فهي غير مجدية. والنقد الأدبي أو التذوق الفني بشكل عام في مفهوم الانطباعية هو تعبير عن الانفعالات الشخصية والأحاسيس الذاتية التي يثيرها العمل الأدبي في الناقد.

1-مفهوم النقد الانطباعي:

يعرف قاموس (لاروس) الانطباعية (Impressionnisme) بأنها مدرسة فنية تشكيلية ظهرت تحديدا بين 1874 و 1886، من خلال ثمانية معارض بباريس، وقد جسدت قطيعة الفن الحديث مع الأكاديمية الرسمية، و هي تحصر وظيفة الفنان في اقتناص انطباعاته البصرية أو العقلية بخصوص موضوع ما، وليس في تصوير ذلك الواقع الموضوعي.

ثم انتقلت الانطباعية من الفن التشكيلي إلى النقد الأدبي على أنها منهج ذاتي حر، يسعى الناقد من خلاله إلى أن ينقل للقارئ ما يشعر به تجاه النص الأدبي، تبعا لتأثره الآني والمباشر بذلك النص، دون تدخل عقلي أو تفكير منطقي صارم، وسيلته الأساسية في هذا المسعى هي الذوق الفردي الذي يعكس تأثر الذات الناقدة بالموضوع الإبداعي.

وانتقلت الانطباعية إلى النقد العربي بتسميات مختلفة (كالمنهج التأثري أو الذاتي أو الذوقي أو الانفعالي...).

2-النقد الانطباعي في النقد العربي القديم:

يُعدّ المنهج الانطباعي أقدم مناهج النقد، فقد عرفه العرب منذ القديم، حيث كان يقوم به أناس اعتادوا تذوّق الشعر، بحكم طول ممارستهم، أواحتكاكهم بالشعر، وهو ما ساعدهم في إدراك مواطن جماله، أو رداءته. وقد كان النقد العربي قديما - والجاهلي منه على وجه الخصوص - نقدا انطباعيا تأثريا، تتحكم فيه الدوافع الذاتية، وكان تقويم الناقد للعمل الأدبي مبنيا على أساس ما يبعثه في نفسه.

لقد كان النقد الانطباعي عند العرب في العصر الجاهلي أحكامًا عامة، غير معلّلة في الغالب يصدرها الناقد وفق ما يمليه عليه ذوقه، وإدراكه للعمل الأدبي.

من هنا كان النقد ملائما لروح العصر وملائما للشعر العربي نفسه، فالشعر الجاهلي إحساس محض أو يكاد، و النقد كذلك، كلاهما قائم على الانفعال و التأثر.

3-نماذج من النقد الانطباعي:

كثيرة هي الشواهد، والنماذج التي تبيّن الانطباعية، والذاتية في النقد العربي القديم، وقد توقّفنا عند بعضها في محاضرة النقد الجاهلي. ولعلّ معظم الشواهد النقدية الجاهلية تصوير لما تخلّفه النصوص الشعرية في نفوس متلقيها، حيث يكون الحكم النقدي في الغالب رأي ذاتي مبني على أسس، ودوافع شخصية، تتحكم فيها العاطفة، والظروف المحيطة، والآنية. مثل ما تبيّنه النماذج الآتية:

1-تنازع علقمة الفحل وامرؤ القيس الشعر، وادّعى كلاهما أنه أشعر من صاحبه فتحاكما إلى أم جندب زوج امرئ القيس. فقالت لهما: قولا شعرا على روي واحد، وقافية واحدة تصفان فيه الخيل، ففعلا ثم أنشداها. فقضت لعلقمة على امرئ القيس. لأن امرأ القيس يقول:

فللسّوط ألهوب، وللسّاق درة وللزّجر منه وقع أخرج مُهذِبِ

وأما علقمة فيقول:

فأدركهنّ ثانيا من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتحلّبِ

فعلقمة وصف المثل الأعلى لجري الفرس، فبالغ إذ جعل فرسه يُدرك الصيد، وصاحبه (علقمة) الراكب عليه ثنى عنانه، ولم يضربه بالسوط ولم يكلفه فوق طاقته.

أما امرؤ القيس فقد وصف واقع فرسه فبيّن أنّه ألهبه بسوطه، وأجهده بزجره، و لولا الضرب و الزجر ما أسرع الفرس.

2-من النقد الانطباعي أيضا ما رُوِيَ عن أبي عبيدة حيث قال: مرّ المسيّب بن علس بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه، فأنشدهم:

ألا أنعم صباحا أيُّها الربعُ واسلَمِ نحيّيك عن شَحطٍ و إن لم تُكَلَّمِ

فلما بلغ قوله:

وقد أتناسى الهمَّ عند ادّكاره بناجٍ عليه الصَّيعريّة مُكدَمِ

فقال طرفة_ وهو صبي يلعب مع الصبيان _: استنوق الجملُ فقال المسيّب: يا غلام، اذهب إلى أمّك بمُؤبدة، أي داهية. والخطأ هنا في نسبة الصّيعريّة إلى الجمل، وهي سمة في عنق الناقة لا البعير. فأدرك طرفة بفطرته أنّ كلمة " الصّيعرية " وُضِعت للدلالة على تلك السمة في عنق الناقة، فلما ابتعد بها الشاعر عن أصل وضعها من غير سبب معقول، فطن إلى ذلك بفطرته ونبّه الشاعر إلى خطئه بهذه العبارة التي صارت مثلا.